نظرات في تفسير روح المعاني للإمام الألوسي

أ. صالح فريوي

جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة

يعتبر كتاب "روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني" عنوان مؤلَّف الإمام الألوسي (ت1270هـ/1854م) في تفسير القرآن الكريم، وهو من التفاسير المبسوطة ذات الصبغة الموسوعية المشتملة على فنون من المعارف المختلفة، وجوانب علمية شتّى.

ونسبته إلى الألوسي لا يحوم حولها أدنى شك لدى جميع الباحثين؛ فما بالعهد من قِدم، كما أن الألوسي سليل عائلة علمية مشهورة في العراق منذ قرون، وهي عوامل تساعد على المحافظة على ما يخلّفه الآباء والأجداد من ميراث في هذا الجانب.

وبذلك حافظت العائلة العالمة على الذخيرة العلمية، لاسيما تفسير الألوسي الذي لا زالت نسخه الخطية -ما كُتب منها بخطّ بيده أو بيد غيره-

موجودة في عدّة مكتبات ببغداد واسطنبول[1].

وللحديث عن تفسير الإمام الألوسي قسّمت هذا البحث إلى ثلاثة عناصر:

الأول: ترجمة الإمام الألوسي

الثاني: ما اشتمل عليه الكتاب

الثالث: طريقة الألوسي في تناول الآيات والسور

الأول: ترجمة الإمام الألوسي

الألوسي هو أبو الثناء شهاب الدين محمود بن عبد الله، وُلد قبيل ظهر الجمعة رابع عشر من شعبان سنة سبع عشرة بعد المائتين والألف من هجرة النبي ﷺ (1217 هـ / 1808 م)، في جانب الكَرْخ[2] من بغداد[3].

أمّا الألوسي فهذه النسبة هي إلى " ألوس "، قال في المعجم: « ألوس:

---

(1) ذكر الأستاذ محسن عبد الحميد بعض البيوتات والمكتبات التي توجد فيها نسخ الكتاب وكذا الأشخاص الذين بحوزتهم الكتاب -كله أوبعضه-، وأكثرهم من عائلة الألوسي. انظر: الألوسي مفسرا، ص159 وما بعدها.

(2) الكرخ: بالفتح ثم السكون وخاء معجمة، قال ياقوت الحموي: «ما أظنّها عربية، إنما هي نبطية، وهم يقولون: كَرَخْتُ الماء وغيره من البقر والغنم إلى موضع كذا: جمعته فيه في كل موضع، وكلّها بالعراق». معجم البلدان، 507/4؛ وقال السمعاني: «كرخ بغداد، وهي محلّة بالجانب الغربي منها». الأنساب، 51/5.

(3) ترجم الأستاذ محسن عبد الحميد للإمام الألوسي ترجمة وافية في كتابه " الألوسي مفسرا "، انظر: ص28-143؛ وتراجع ترجمته أيضا في: التفسير ورجاله، محمد الفاضل بن عاشور، ص176؛ والأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنّساء والعرب والمستعربين والمستشرقين، الزركلي، 176/7-177؛ وإيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، إسماعيل باشا البغدادي، 586/3؛ ومعجم المؤلفين: تراجم مصنّفي الكتب العربية، عمر رضا كحّالة، 815/3-816.

اسم رجل سُمّيت به بلدة على الفرات، قال أبو سعد:ألوس بلدة بساحل بحر الشام قرب طرسوس، وهو سهو منه، والصحيح أنها على الفرات»[1].

و" ألوس" الآن هي بليدة تقوم على جزيرة صغيرة في نهر الفرات[2].

والإمام الألوسي سليل أسرة عريقة، عُرفت بالعلم والصلاح والتدين؛ فوالده هو السيد عبد الله أفندي الذي ينتهي نسبه من جهة أبيه إلى الحسين بن علي -رضي الله عنهما- ومن جهة أمّه إلى الحسن بن علي -رضي الله عنهما-، وقد كان ذا فضل وعلم وورع.

أما أمّه فهي فاطمة بنت العالم المعروف الشيخ حسين بن الشيخ علي العشاري[3] (ت 1200هـ/ 1785م) صاحب المؤلفات الجليلة، وقد توفيت وهو صغير يقرأ القرآن.

كما كان له أخوان؛ أحدهما: عبد الرحمن (ت 1284هـ/1867م) كان عالما بالمنقول، والثاني: عبد الحميد (ت1324هـ/1906م)، فقد بصره وعمره عام واحد، فاشتغل بالتصوف، وكان عالما شاعرا، تتلمذ على أخيه أبي الثناء صاحب الترجمة[4].

بدأ الألوسي مسيرته العلمية -كعادة أبناء بلده- بحفظ القرآن الكريم، وظهرت عليه علامات النبوغ والتفوّق ولـمّا يبلغ السادسة من عمره؛ فانبرى لحفظ المتون في الكتّاب قبل أن يختم القرآن، ثم لازال يتدرج في الانتهال من العلوم على يدي والده خاصة، حتى «حصّل طرفا من فقهي الحنفية والشافعية،

---

(1) معجم البلدان، ياقوت الحموي، 292/1-293. والاستدراك الذي أورده إنما هو على السمعاني في الأنساب، 204/1؛ وانظر: الأعلام، 176/7.

(2) انظر: تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي، ؛ والألوسي مفسرا، ص39.

(3) ترجمته في: الأعلام، 248/2. وفيه أنه توفي سنة 1195هـ/1781م.

(4) انظر في كل ما تقدّم: الألوسي مفسرا ، ص40-41؛ والأعلام، 288/3.

وأحاط خبرا ببعض الرسائل المنطقية وكتب الحديث، وكان ذلك قبل أن يبلغ العاشرة من عمره»[1].

وقد كان الإمام الألوسي شغوفا بطلب العلم؛ فيذكر شيئا من ذلك فيما يخصّ علم التفسير؛ حيث يقول: «وإني -ولله تعالى المنّة- مذ ميطت عنّي التمائم، ونيطت على رأسي العمائم، لم أزل متطلّبا لاستكشاف سرّه المكتوم، مترقّبا لارتشاف رحيقه المختوم، طالما فرقت نومي لجمع شوارده، وفارقت قومي لوصال فرائده، فلو رأيتني وأنا أصافح بالجبين صفحات الكتاب من السهر، وأطالع -إن أعوز الشمع يوما- على نور القمر في كثير من ليالي الشهر، وأمثالي إذ ذاك يرفلون في مطارف اللهو... وأنا -مع حداثة سنّي وضيق عطني- لا تغرّني حالهم، ولا تغيرني فعالهم»[2].

هذا، وقد عرف الإمام الألوسي بحزمه؛ فكان آمرا بالمعروف، ناهيا عن المنكر، لا تأخذه في الله لومة لائم، فكثر لذلك خصومه والحاقدون عليه، وفعلت الوشاية به فعلتها عند الوزراء والولاة؛ فكان منهم من أحبّه ووقّره وقرّبه واستشاره، كما كان منهم من كرهه وناصبه العداء وكاد له، كما كان «من أشد أنصار الدولة العثمانية، ومن أقوى الدعاة لها؛ أيدها بلسانه، ودافع عنها في كتبه ورسائله ومواعظه، وبرّر وجودها بنصوص القرآن الكريم والأحاديث النبوية وإجماع كبار علماء المسلمين»[3].

هذا هو الخط العام الذي سار فيه الألوسي، حتى إنه لم ينس أن يذكر في مقدّمة أكبر عمل علمي أنجزه في حياته -وهو تفسيره روح المعاني- السلطان

---

(1) الألوسي مفسرا، ص42.

(2) خطبة روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي، 03/1.

(3) الألوسي مفسرا، ص73.

العثماني الذي عاصر بداية تأليف هذا التفسير[1] وهو: محمود خان العدلي ابن السلطان عبد الحميد خان[2]، ولم ينس أيضا ذكر واليه على العراق: علي رضا باشا الذي وصل إلى سدّة الحكم بعد أن قضى على آخر وال مملوكي في العراق داود باشا[3]، على الرغم من أن داودا هذا كان راعي نبوغ الألوسي الأولّ، وصاحب الأفضال الكثيرة عليه.

وقد شهدت مدّة حكم هذا السلطان التي استغرقت خمسة عشر عاما تقريبا (1232-1247هـ/1816-1831م) نهضة علمية وتطوّرا أدبيا كان الألوسي ثمرة من ثمراتها، كما عرفت بالمقابل أحداثا سياسية وعسكرية مهمّة، كان آخرها استيلاء علي رضا باشا على بغداد، والتي كانت امتحانا حقيقيا للإمام الألوسي المقرّب جدّا من داود باشا المخلوع، حيث وقف إلى جانبه في قتاله لعلي رضا[4]؛ لأنه كان يعتقد -كغيره من علماء بغداد- أن داود باشا أكفأ وأعرف بأساليب حكم العراق من سواه.

ولا ينبغي أن يُفهم من ذلك أن مساندته لداود باشا تلك كانت مساهمة منه في فصل بغداد عن الخلافة العثمانية، وهو ما اتُّهم به داود باشا نفسه، والذي كان السبب المباشر في عزله؛ لأن علماء العراق كانوا «يرون في السلطان حامي حمى الإسلام، ورافع راية الجهاد، ولذلك كان الثوّار على الوالي لا يقولون إنهم

---

(1) انظر: روح المعاني، 1/ 04.

(2) ولي السلطنة سنة 1222هـ. وصف بالعلم والزهد وحسن الخط والعدل، وأنه يأكل من عمل يده تحريا للحلال. كذا قال الشوكاني في البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، 160/2.

(3) انظر: موسوعة العراق السياسية، عبد الرزّاق محمد، 394/1 وما بعدها.

(4) انظر: تاريخ العراق الحديث، ص354.

ثائرون على السلطان، وإنما ضد وال ظالم»[1].

وقد أثبتت الأحداث التي جاءت بعد ذلك صدق الألوسي وانسجامه مع خط سيره العام.

أمّا الوزير الثاني الذي عاصره الألوسي، فهو علي رضا باشا الذي دخل بغداد عنوة بعد قضائه على حكم المماليك، وساعده في ذلك حادثة الطاعون (1246هـ/1830م) التي كانت تأتي على الآلاف من الضحايا في اليوم الواحد، لتكتمل المأساة بطغيان نهر دجلة، وقد كاد الوزير المنتصر أن يفتك بالألوسي بسبب مواقف هذا الأخير المؤيدة للوالي المخلوع من جهة، ومن جهة ثانية بسبب كلام الوشاة، لولا وساطة مفتي الحنفية في بغداد: عبد الغني جميل (1194-1278هـ=1780-1861م)، والذي أعلن فيما بعد الثورة على هذا الوزير نتيجة أعمال النهب والقتل التي مارسها جنوده في حق السكّان، لينضم الألوسي إلى هذه الثورة، بعد أن كان مختفيا عن الأنظار ثلاثة أيام، وذلك سنة 1247هـ[2].

ولدى إخماد ثورة عبد الغني جميل وعزله من منصب الإفتاء تألّب عليه الوزير مرّة أخرى؛ فحبسه في محلّة الشيخ عبد القادر سنة ونصف، ليعود بعد ذلك إلى التدريس والوعظ والإرشاد، وعند سماع الوزير علي رضا باشا لبعض دروسه أعجب به وبفصاحته، و«أجازه بوقف جامع المرجان، وكان لا يُعطى إلا لأعلم علماء بغداد، وجاءته رتبة التدريس من قبل السلطان، ثم عينه الوزير في منصب خطير جدّا، وهو "مفتي الحنفية في بغداد"، وكان وعده بذلك يوم سمع وعظه»[3].

ولـمّا عُزل علي رضا باشا سنة 1258هـ (=1840م)، خلفه الوزير محمد

---

(1) المرجع نفسه، ص11.

(2) انظر: الألوسي مفسرا، محسن عبد الحميد، ص43.

(3) المرجع نفسه، ص44.

نجيب باشا الذي كان شديد الموالاة للدولة العثمانية[1]، فدبّر مكيدة للتخلّص من الألوسي وأعانه عليها قوم آخرون من الوشاة، فقالوا -ظلما وزورا-: إنه أبدى مواقف لينة من الشيعة، وأن له علاقات مع البابية والبهائية، وأنه مع اتساع دائرة شعبيته وإكبار الناس له أصبح من الأخطار التي تتهدّد الحكم العثماني في العراق؛ فنحّاه بسبب ذلك من منصب الإفتاء وبالغ في إيذائه والتضييق عليه، فعاش الألوسي عيشة فقر وضنك، ممّا اضطرّه للارتحال إلى القسطنطينية لعرض مظلمته على المسئولين هناك[2].

وبدأ الألوسي رحلته هذه سنة 1267هـ (= 1850م)، وفي عاصمة الخلافة وجد من حفاوة الاستقبال ما كاد ينسيه ما أصابه في بغداد على يد واليها، وبلغ اهتمامهم به -بعد اطّلاعهم على تفسيره- إلى أن اقترحوا عليه البقاء في العاصمة، وألحّوا عليه في ذلك إلا أنه امتنع، فصدر أمر بردّ نصف أوقاف جامع المرجان إليه.

وعاد الإمام الألوسي إلى بغداد، التي وصلها في الخامس عشر من ربيع الأوّل سنة 1269هـ (=1852م) ليتهاطل عليه الأدباء والعلماء مرحّبين ومهنّئين، يقول هو نفسه في ذلك: «وأسرعت سحرة شعراء بابل بأسرهم إلى تقديم حبال نظمهم وعصي نثرهم، فقدّموا ما لو رأته العصا الموسوية لجعلت تهتزّ عجبا كأنها جان، ولو شاهدته الرهبان العيسوية لأوشكت أن تقول: وحرمة الإنجيل هذا قبس من معجزة القرآن»[3].

ثم حكم العراق بعد محمد نجيب باشا وزراء تراوحت مدّة حكم كلّ واحد منهم بين السنة والسنتين، وهي مدد قصيرة لا تتيح في الغالب للوزير

---

(1) انظر: تاريخ العراق الحديث، عبد العزيز نوار، ص333.

(2) انظر: الألوسي مفسرا، ص46.

(3) المرجع نفسه، ص50.

الفرصة لاتّخاذ إجراءات سياسية أو اجتماعية تحمل الناس على اتخاذ مواقف منها بالقبول أو الرفض.

وعموما فقد كانت علاقة الألوسي بهؤلاء الولاة حسنة، خاصة وقد صار بعيدا عن مواقع القرار بعد عزله.

أما وفاة الإمام الألوسي، فقد اشتكى رحمه الله من حمّى كانت تعاوده بين حين وآخر بسبب مطر أصابه لدى رجوعه من اسطنبول إلى بغداد في منطقة بينها وبين الموصل، حتى وهن جسمه واشتدّ مرضه «فحضرته الوفاة يوم الجمعة بعد أن صلى بإيماء الظهر، وكان اسم الله على لسانه يلهج به، ولم يتلعثم حتى صباح السبت، فعرجت روحه في الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة سبعين ومائتين وألف (1270هـ/1854م)، وتولّى غسله أجل تلامذته: العالم محمد أمين أفندي الشهير بالواعظ»[1].

وكان لموته -عليه رحمة الله- وقع شديد في المشرق والمغرب، وبكاه الناس، وصلى عليه خلق كثير.

وقد كان -رحمه الله- حريصا على الكتابة والتأليف، وهو ما أورثنا عددا لا بأس به من الكتب والمدوّنات الأدبيّة والعلميّة، منها على سبيل المثال:"نشوة الشمول في السفر إلى إسطمبول"، "غرائب الاغتراب ونزهة الألباب"، "حواشي شرح القطر لابن هشام"، "شهي النغم في ترجمة شيخ الإسلام عارف الحكم".

أما أهم وأجل وأعظم كتبه على الإطلاق، وبه نال شهرته العلمية، فهو تفسيره "**روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**".

الثاني: ما اشتمل عليه الكتاب

يُعد كتاب "روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني" أحد

---

(1) المرجع نفسه، ص53.

أضخم التفاسير وأثراها؛ نقدا، وتحقيقا، وترجيحا للآراء، وسأورد في هذا المطلب وصفا عامّا لهذا السفر العظيم بما اشتمل عليه؛ بدءا بالمقدّمة ومرورا بذكر الأوصاف العامة التي تحدّد بعض معالم التفسير ومحاوره الكبرى عند الألوسي.

وأول ما يلاحظ على كتاب "روح المعاني" أن مؤلِّفه الإمام الألوسي سلك فيه مسلك كثير من المفسرين من حيث تقديمهم لكتبهم بمقدّمات عادتهم فيها أن يتحدّثوا عن جملة من الأمور: كدواعي التأليف والطريقة المتّبعة والأهداف المتوخّاة وغير ذلك ممّا يعاينه المطّلع على هذه المؤلّفات، وهم في ذلك ليسوا بدعا من الخلق؛ إذ هو شأن أكثر المؤلّفين في مختلف العلوم، لكن الملاحظ على صنيع الألوسي أنه لم يتحدّث في المقدّمة التي استهل بها تفسيره عن المنهج الذي اتّبعه فيه، ولا عن الطريقة التي سلكها في شرحه لآي الذكر الحكيم، وهو ما يقطع الطريق أمام أي محاولة لمحاكمة صنيعه العملي إلى كلامه النظري، وغاية ما يُلمح في هذا المجال أنه أتى في حديثه عن الفوائد السبع التي تلت خطبة التفسير على رسم موقف من بعض القضايا الكلامية أو تلك المتعلّقة بعلوم القرآن، وإن كان قد نوّه في مستهل خطبته -بأسلوب ماتع وبلاغة فائقة- بشأن العلوم الدينية مقارنة مع غيرها من العلوم، إذ هي بالنسبة إليها في نظره «شمس ضحاها، وبدر دجاها، وخال وجنتها، ولعس شفتها، ودعج عيونها، وغنج جفونها، وحبب رضابها، وتنهد كعابها، ورقّة كلامها، ولين قوامها»[1].

أمّا الفوائد السبع التي سبقت الإشارة إليها فهي جملة من القضايا ذات التعلّق الشديد بفن التفسير ولا مناص من الإحاطة بها لمن رام الاشتغال بتفسير كتاب الله -عز وجل-، وهذه الفوائد كما عرضها صاحبها هي:

---

(1) خطبة روح المعاني، 1/ 02.

الفائدة الأولى: «في معنى التفسير والتأويل وبيان الحاجة إلى هذا العلم وشرفه»[1].

ذكر فيها أولا بعض الآراء التي قيلت في معنى كل من التفسير والتأويل والعلاقة بينهما، وخلص إلى التمييز بين الحديث عنهما باعتبار العرُف؛ فيكون التأويل حينها «إشارة قدسيّة ومعارف سبحانيّة، تنكشف من سجف العبارات للسّالكين، وتنهل من سحب الغيب على قلوب العارفين، والتفسير غير ذلك»[2]، والحديث عنهما باعتبار ما يدلّ عليه اللّفظ مطابقة؛ فيكون معناهما واحدا ولا يصحّ ما قيل في التفريق بينهما عندها، إذ «أن في كل كشف إرجاعا، وفي كل إرجاع كشفا»[3]، وهذا استنادا إلى المعنى اللّغوي لكل من التفسير والتأويل الذي استهل فائدته ببيانه.

ثم أشار في هذه الفائدة -كما هو بيّن من عنوانها- إلى فضل علم التفسير والحاجة إليه، وأن شرفه إنما هو من شرف موضوعه ألا وهو القرآن الكريم الذي لا يُهتدى إلى فهمه إلا بتوفيق منه -جل وعلا-.

الفائدة الثانية: «ما يحتاجه التفسير، ومعنى التفسير بالرأي، وحكم كلام السادة الصوفيّة في القرآن»[4]

عد ممّا يحتاجه التفسير علم اللغة وما يتفرّع عنه من المعاني والنحو والبلاغة، وعلم الحديث وما يلتحق به من أسباب النزول والناسخ والمنسوخ، وعلم أصول الفقه وعلم الكلام وعلم القراءات، وأضاف السيوطي -كما يقول

---

(1) روح المعاني، 1/ 04.

(2) المصدر نفسه، 1/05.

(3) المصدر نفسه، 1/05.

(4) روح المعاني، 1/05.

الألوسي- علم التصريف وعلم الاشتقاق وعلم الفقه وعلم الموهبة[1]، وعقّب عليه في اشتراطه علم الفقه بقوله: «ولم يعدّه غيره»[2]، كما نوّه بعدّه علم الموهبة ممّا يحتاجه المفسر، وإن أتى بكلام نحى فيه منحى إشاريا[3].

أمّا التفسير بالرأي فبعد أن ساق بعض أدلّة المانعين ورد عليها بما يفهم منه أنه من القائلين بجوازه، وحمل الأدلّة على محامل اعتقد أنها تصدق عليها، قال: «فالذي ينبغي أن يُعول عليه أن من كان متبحّرا في علم اللسان، مترقّيا منه إلى ذوق العرفان، وله في رياض العلوم الدينيّة أوفى مرتع، وفي حياضها أصفى مكرع، يدرك إعجاز القرآن بالوجدان لا بالتقليد، وقد غدا ذهنه لما أغلق من دقائق التحقيقات أحسن إقليد؛ فذاك يجوز له أن يرتقي من علم التفسير ذروته، ويمتطي منه صهوته»[4].

وأمّا كلام السادة الصوفية في القرآن فهو ممّا يفيضه الله تعالى على بواطن من شاء من عباده، ولا منافاة بينه وبين الظواهر المرادة؛ لأنهم لم يعتقدوا أن الظواهر غير مرادة؛ بل هي الأصل عندهم، ولا يُطمع في الوصول إلى تلك الدقائق التي تنكشف على أرباب السلوك قبل إحكام الظواهر، ومن ادّعى منهم فهم أسرار القرآن قبل إحكام الظاهر، فهو كمن ادّعى البلوغ إلى صدر البيت قبل أن يُجاوز الباب[5]، ثم أطال الحديث في التدليل على صحّة ما ذهب إليه بكلام بعضه صحيح، وبعضه -رغم مسحة التحقيق التي علته- إلا أنه يحتاج إلى

---

(1) انظر: الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، 180/2 وما بعدها.

(2) روح المعاني، 06/1.

(3) المصدر نفسه، 06/1.

(4) المصدر نفسه، 06/1-07.

(5) روح المعاني، 07/1.

تحقيق[1].

الفائدة الثالثة: وجعلها في ذكر أسماء القرآن الكريم

ذكر أنها عند البعض خمسة وخمسون اسما، ثم قال: «وعندي أنها كلها ترجع بعد التأمّل الصادق إلى القرآن والفرقان-رجوع أسماء الله تعالى إلى صفتي الجمال والجلال»[2].

وأتبع ذلك بتحقيق لفظ القرآن وأقوال العلماء فيه، مرجّحا في النهاية ما ذهب إليه الزجّاج[3] وغيره وأنه وصف أو مصدر جُعل علما شخصيا[4]، كما نقل أقوال العلماء في معنى كل من القرآن والفرقان لا سيّما كلام السادة الصوفيّة مع شرح مراداتهم[5].

الفائدة الرابعة: «تحقيق معنى أن القرآن كلام الله غير مخلوق»[6].

أطال الكلام فيها فجاءت في عشر صفحات، ذكر في بدايتها أنها «من أمّهات المسائل الدينية والمباحث الكلامية، كم زلّت فيها أقدام، وضلّت عن الحق بها أقوام»[7]، ووعد بأنه سيأتي في هذه الفائدة بما لم يسبق للقارئ أن

---

(1) المصدر نفسه، 1/7-08.

(2) المصدر نفسه، 1/08.

(3) هو أبو إسحاق إبراهيم بن السري بن سهل الزجاج. عالم بالنحو واللغة، ولد ببغداد ومات بها سنة 310هـ. انظر ترجمته في:تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، 6/89-93 (رقم 3126)؛ ومعجم الأدباء، الحموي، 1/82-95 (رقم 09)؛ ووفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، 1/49-50 (رقم 13).

(4) روح المعاني، 1/08.

(5) المصدر نفسه، 1/9-10.

(6) المصدر نفسه، 1/10.

(7) المصدر نفسه، 1/10.

شنّف به سمعه: فبدأ بالتفريق بين الكلام اللفظي والكلام النفسي، وأثبت -بعد جملة من الأدلّة- أن لله تعالى كلاما نفسيا أزليا، ونقل من أقوال العلماء السابقين في صفة كلام الله تعالى وأن «القديم هو القرآن اللفظي النفسي الذي هو مجموع اللفظ النفسي والمعنى»[1]، وكون القرآن مكتوبا في المصاحف لا ينافي قدمه؛ لأنه غير حال في شيء منها، فليس من باب الحلول ولا التجسيم، ولا قيام الحوادث بالقديم[2].

وختم الحديث عن الفائدة الرابعة برأي المعتزلة وغيرهم في كلام الله تعالى، دون أن يكلف نفسه عناء الرد عليهم، مكتفيا بما بسطه من قول أهل السنّة، وما يتضمّنه من إجابة عن هؤلاء وهؤلاء.

وما يُلفت النظر في هذه الفائدة هوأن المطالع لها يجد نفسه أمام متكلم محيط بعلم الكلام؛ فهو يناقش الآراء التي يوردها بفهم مستوعب، وفكر ناقد، محدّدا موقفه من كلام الله تعالى -كما يقول-: «بأسلوب عجيب، وتحقيق غريب»[3].

الفائدة الخامسة: «في بيان المراد بالأحرف السبعة التي نزل بها القرآن»[4].

ذكر في هذه الفائدة أن حديث الأحرف السبعة رواه واحد وعشرون صحابيا حتى نُص على تواتره، ثم عرج على الأقوال التي ذُكرت في معناه فأوصلها إلى سبعة أقوال؛ رجّح السابع منها وهو القاضي بأنها سبع لغات، مع ذكر من رجّحه من اللغويين والمفسرين، ثم أحال القارئ على كتابه "الأجوبة

---

(1) المصدر نفسه، 14/1.

(2) المصدر نفسه، 18/1.

(3) روح المعاني، 10/1.

(4) المصدر نفسه، 20/1.

العراقية عن الأسئلة الإيرانية" الذي حقق فيه الكلام عن الأحرف السبعة[1].

الفائدة السادسة: «جمع القرآن وترتيبه»[2].

ذكر فيها أن جمع القرآن الكريم كان على عهد النبي ﷺ أولا، ثم جُمع الجمع الثاني في عهد أبي بكر الصدّيق ﷺ مستدلا على ذلك بحديث البخاري الطويل عن زيد بن ثابت بعد مقتل أهل اليمامة، ثم الجمع الثالث على عهد عثمان ﷺ كما روى البخاري عن أنس وما كان من حذيفة بن اليمان[3]، وقد كان الألوسي في أثناء ذلك مدافعا عن عثمان ﷺ، رادا لما قيل فيه، مستشهدا لصحة عمله ﷺ بما قاله الإمام علي -كرّم الله وجهه- وغيره من الصحابة -رضوان الله عليهم-، داحضا لقول من قال بتحريف القرآن وإسقاط جزء منه، وغير ذلك ممّا يُنسب إلى الشيعة، مع أن محقّقيهم على أن الزيادة والنقصان فيه مجمع على بطلانها[4].

وقد حمل هذا الأمرُ الألوسي على حشد الأدلّة التي تدفع كل هذه الأقوال الشاذّة المخالفة للإجماع؛ ذلك أن ما بين الدفتّين قرآن متواتر ولا عبرة بما وراء ذلك من القول[5].

أمّا ترتيب الآيات والسور فقد جزم الألوسي بأنهما توقيفيّان حيث يقول : «اعلم أن ترتيب آيه وسوره بتوقيف من النبي ﷺ؛ أمّا ترتيب الآي، فكونه توقيفيّا ممّا لا شبهة فيه حتى نقل جمع الإجماع عليه من غير خلاف بين المسلمين

---

(1) المصدر نفسه، 21/1.

(2) المصدر نفسه، 21/1.

(3) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه: فضائل القرآن؛ باب جمع القرآن، 1908/4 (رقم 4702).

(4) انظر: التبيان في تفسير القرآن، محمّد بن الحسن الطوسي، 03/1.

(5) روح المعاني، 21/1 وما بعدها.

والنصوص متظافرة على ذلك، وما يدلّ بظاهره من الآثار على أنه اجتهادي معارَض ساقط عن درجة الاعتبار»[1].

وأمّا ترتيب السور فمختلف فيه، والجمهور على أنه توقيفي، وساق لرأيه الأدلّة التي تسنده، ثم ذكر حديث ابن عباس الذي قال فيه لعثمان: «ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال -وهي من المثاني-، وإلى براءة -وهي من المئين- ...» الحديث[2]، ليخلص في الأخير إلى القول بأن «الذي ينشرح له صدر هذا الفقير أي المصنّف- هو ما انشرحت له صدور الجمّ الغفير، من أن ما بين اللوحين الآن موافق لما في اللوح من القرآن، وحاشا أن يهمل -صلى الله تعالى عليه وسلم- أمر القرآن، وهو نور نبوّته وبرهان شريعته، فلا بد؛ إمّا من التصريح بمواضع الآي والسور، وإما من الرمز إليهم بذلك وإجماع الصحابة في المآل على هذا الترتيب»[3].

وما رجحه -وإن كان وجيها- إلا أنه لا دليل فيه على ما ذهب إليه، والمسألة تحتاج إلى إثبات تاريخي صحيح، لا إلى كلام عقليّ، ويظل ترتيب السور أمرا خلافيّا بين العلماء[4].

---

(1) المصدر نفسه، 26/1.

(2) أخرجه أبو داود في سننه: الصلاة؛ باب من الرجعة بها، 208/1 (رقم 786)؛ والترمذي في سننه: التفسير؛ باب ومن سورة التوبة، 272/5 (رقم 3086)، وقال الترمذي: « حسن صحيح لا نعرفه إلا من حديث عوف عن ابن عباس »؛ وأحمد في المسند، 57/1 (رقم 399)، 69/1 (رقم 499)؛ والحاكم في المستدرك، 221/2، 330، وصحّحه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي في التلخيص. لكن قال أحمد شاكر: « في إسناده نظر كثير، بل هو ضعيف جدّا، بل هو حديث لا أصل له ». المسند بتحقيق أحمد شاكر، 197/1 (رقم 399).

(3) روح المعاني، 27/1.

(4) انظر: البرهان في علوم القرآن، الزركشي، 257/1؛ والإتقان، السيوطي، 63/1؛ ومناهل العرفان، الزرقاني، 353/1. والجمهور – كما ذكر الثلاثة – على أن ترتيب السور في

الفائدة السابعة: «في بيان وجه إعجاز القرآن».

إعجاز القرآن -كما يقول الألوسي-: « ممّا لا مرية فيه، ولا شبهة تعتريه، وأرى الاستدلال هنا عليه ممّا لا يُحتاج إليه، والشبه صرير باب أوطنين ذباب»[1].

وقد عرض الألوسي بعد ذلك إلى مختلف أوجه الإعجاز التي ذكرها العلماء[2]، ثم قال: «والذي يخطر بقلب هذا الفقير أن القرآن بجملته وأبعاضه حتى أقصر سورة منه معجز بالنظر إلى نظمه وبلاغته وإخباره عن الغيب، وموافقته لقضيّة العقل ودقيق المعنى، وقد يظهر كلها في آية، وقد يستتر البعض كالإخبار عن الغيب»[3]، ثم فصّل صور الإعجاز الخمس مع التمثيل لذلك. وهو في كل ما أورده ناقل عن غيره.

هذه إذن مقدّمة الألوسي لتفسيره " روح المعاني "، ليبدأ بعدها مباشرة بتفسير أول سورة من كتاب الله -عز وجل- وهي سورة الفاتحة، مترسّما في ذلك بعض الخطوات التي تكاد تطّرد في تفسيره كله، وهو ما سأعرض له في المطلب الآتي.

الثالث: طريقة الألوسي في تناول الآيات والسور

إن الإمام الألوسي لم يعرض لتفسير القرآن الكريم وفق وحدة موضوعية لمجموع الآيات، وإنما يفسر كل آية أو جزء منها أو كلمة بحسب المراد، وهو في ذلك قد التزم منهجا مطّردا لم يكد يحيد عنه إلا شيئا يسيرا، والمتمثّل في

المصحف الشريف بالاجتهاد من الصحابة ﷺ، وهو أحد ثلاثة أقوال، وقد رجّح كل واحد من الثلاثة ما أوصله إليه اجتهاده، ولكل وجهة هو مولّيها.

(1) روح المعاني، 27/1.

(2) المصدر نفسه، 27/1-28.

(3) المصدر نفسه، 31/1.

الحديث عن: أسماء السورة إن كان لها أكثر من اسم، والمكّي والمدني، وعدد آيات السورة المفسرة، والمناسبة بينها وما قبلها، وفضائل السورة، والتفسير الإشاري، والحروف المقطّعة في أوائل السور، وهي بعض مباحث علوم القرآن التي لا غنى للتفسير عنها، والتي يوردها الألوسي في بداية تفسير كل سورة تقريبا، وسيتولّى هذا المطلب بيانها وفق ما يأتي:

أولا: أسماء السورة

لكل سورة من سور القرآن الكريم اسم تُعرف به هو عَلَم عليها، وقد يكون للسّورة الواحدة أكثر من اسم، وقد أورد السيوطي في تعريف السورة قول من قال: «السورة الطائفة المترجمة توقيفا»[1]، ثم قال: «أي المسمّاة باسم خاص بتوقيف من النبي ﷺ، وقد ثبت جميع أسماء السور بالتوقيف من الأحاديث والآثار»[2]، وثبوت أسماء جميع أسماء السور توقيفا -كما يقول السيوطي- هل ينصرف عنده -رحمه الله- إلى الأسماء المشهورة التي عُرفت بها السور واستقرّ الأمر عليها، أم أنه يشمل هذه، ويشمل ما عداها من الأسماء الأخرى التي أطلقت على بعض سور القرآن الكريم؟ فإن كان كلامه شاملا لجميع الأسماء فقد بطل وجه التساؤل في كلام الزركشي عندما قال: «وينبغي البحث عن تعداد الأسامي: هل هو توقيفي، أو بما يظهر من المناسبات؟»[3]؛ لأن كلام الزركشي يدلّ على أن بعض الأسماء من لفظ النبي ﷺ لا جميعها[4].

---

(1) الإتقان، 53/1.

(2) المصدر نفسه، 53/1.

(3) البرهان في علوم القرآن، الزركشي، 270/1.

(4) مثال ذلك سورة الفاتحة؛ فقد ذكروا لها أكثر من عشرين اسما -كما قال السيوطي-، لكن الذي ثبت في أحاديث صحيحة من أسمائها هو: الحمد وأم الكتاب وأم القرآن والسبع

والألوسي يورد في تفسيره -كغيره من المفسرين- ما اختصّت به كل سورة من أسماء، ناسبا في الغالب ما ينقله إلى مصدره كما في "سورة النحل"؛ حيث قال في بداية تفسيره لها: «وتسمّى كما أخرج ابن أبي حاتم[1] سورة النِّعم، قال ابن الفرس[2]: لما عدّد الله تعالى فيها من النعم على عباده»[3].

وقد لا ينسب ما يذكر من أسماء السورة، كما في سورة "بني إسراء"؛ حيث لم يزد على أن قال: «وتسمّى الإسراء وسبحان أيضا»[4].

وفي سورة مريم قال الألوسي: «المشهور تسميتها بذلك، ورُويت عن رسول الله ﷺ»[5]، ثم ساق حديثا أخرجه الطبراني وغيره، وفيه «إن رجلا قال: يا رسول الله، وُلدت لي اللّيلة جارية، فقال: والليلة أنزلت عليّ سورة مريم»[6]، كما أورد عن ابن عباس إنها كانت تسمّى "سورة كهيعص"[7].

المثاني والصلاة، ولم ترد الأحاديث بذكر باقي الأسماء من لفظ النبي ﷺ، وهو ما يدل على دخول الاجتهاد في أسماء سور القرآن الكريم. انظر: الإتقان، 54/1-55.

(1) رجعت إلى تفسير ابن أبي حاتم (سورة النحل) ولم أجد الاسم الذي ذكره الألوسي لسورة النحل ناسبا له لابن أبي حاتم!

(2) هو أبو عبد الله عبد المنعم بن محمد الخزرجي. قاضي أندلسي، من علماء غرناطة. توفي سنة 599هـ. انظر ترجمته في: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، السيوطي، 116/2 (رقم 1582)؛ والديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، ابن فرحون، ص312-313 (رقم 417)؛ والأعلام، الزركلي، 168/4.

(3) روح المعاني، 89/14.

(4) المصدر نفسه، 02/15.

(5) المصدر نفسه، 56/16.

(6) المصدر نفسه، 56/16. والحديث أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، 332/22 (رقم 834). وتكملة الحديث: «سمّها مريم، فكانت تسمى مريم».

(7) انظر: روح المعاني، 56/16.

وفي سورة "القمر" قال إنها تُسمّى "اقتربت"، وتُدعى في التوراة "المبيّضة"؛ لأنها تبيّض وجه صاحبها يوم تسودّ وجوه كما روى ذلك البيهقي في "الشعب" عن ابن عباس، لكن البيهقي قال بأن الحديث منكر[1].

أمّا في سورة " الطلاق " فساق حديث البخاري وغيره أن ابن مسعود سمّاها "النساء القصرى"، ومن أنكر تسميتها بذلك فمن دون دليل؛ إذ أن في الإنكار ردّا للأخبار الثابتة بلا مستند كما قال الحافظ ابن حجر[2].

ثانيا: المكي والمدني

وهو ما يستهل به تفسير أكثر سور القرآن الكريم، فيذكر أن السورة مكية أو مدنيّة، أو مكية فيها مدني، أو مدنية فيها مكي، أو اختلف فيها، إلى غير ذلك ممّا يتعلّق بباب المكي والمدني؛ ففي فاتحة الكتاب مثلا قال:«اختلف فيها؛ فالأكثرون على أنها مكية، بل من أوائل ما نزل من القرآن... وعن مجاهد أنها مدنية»[3].

وقال في سورة " بني إسرائيل ": «وتسمّى سورة الإسراء وسبحان أيضا، وهي كما أخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير -رضي الله تعالى عنهم- مكية، وكونها كذلك بتمامها قول الجمهور»[4].

وقال في سورة "ص": «مكية كما روي عن ابن عباس وغيره، وقيل مدنية، وليس بصحيح كما قال الداني[5]»[6].

---

(1) انظر: المصدر نفسه، 43/27. والحديث رواه البيهقي في شعب الإيمان، 409/2 (رقم 2495).

(2) انظر: روح المعاني، 128/28، 200/30.

(3) روح المعاني، 33/1.

(4) المصدر نفسه، 02/15.

(5) تأتي ترجمته. انظر: ص.

(6) المصدر نفسه، 160/23.

وفي سورة "عبس" قال: «وتسمّى سورة الصاخّة وسورة السفرة، وسُمّيت في غير كتاب سورة الأعمى، وهي مكية بلا خلاف»[1].

فالألوسي يذكر -من خلال ما سبق- أقوال العلماء بشأن مكية أو مدنية السورة مع ترجيح القول الصحيح عند اختلاف الأقوال وتعدّد الآراء.

ثالثا: عدد الآيات في سور القرآن الكريم

يورد الألوسي بعد حديثه عن المكي والمدني وأسماء السورة قبله -إن كان لها أكثر من اسم- عدد آيات السورة المفسرة، فإذا اختلف العلماء في عدد آيها ذكر الاختلاف كله، وكثيرا ما يعتمد في هذا كما يصرّح هو نفسه على أبي عمرو عثمان بن سعيد الداني (ت 444هـ) -رحمه الله- في كتابه " البيان في عدّ آي القرآن "، والذي يختصر الألوسي اسمه في "كتاب العدد" وقد محّضه مؤلّفه لهذا الغرض، وإن ذكر أقوالا لغيره وهم كثيرون في تفسيره؛ فمن أمثلة ذلك:

ما ذكره في سورة " البقرة " قال: «وآياتها مائتان وسبع وثمانون على المشهور، وقيل ستّ وثمانون»[2].

وفي سورة هود قال: « هي كما قال الداني في كتاب العدد مائة وإحدى وعشرون آية في المدني الآخر، واثنتان في المدني الأول، وثلاث في الكوفي»[3].

وفي سورة " المؤمنون " قال: « وهي كما في كتاب العدد للداني ومجمع

---

(1) روح المعاني، 90/30.

(2) روح المعاني، 98/1. والغريب من الألوسي أنه أغفل ذكر الوجه الثالث في عد آي سورة " البقرة "؛ حيث تذكر المصادر أن هناك من قال إن آيها خمس وثمانون ومئتا آية، وهو عد أهل المدينة ومكّة والشام. انظر: الإتقان، 70/1؛ والتحرير والتنوير، ابن عاشور، 202/1 (المقدّمة).

(3) المصدر نفسه، 202/11.

البيان للطبرسي مائة وثمان عشرة آية في الكوفي، ومائة وسبع عشرة آية في الباقي »[1].

وقد يصحّح –أحيانا- ما يمكن أن يكون وقع فيه بعض العلماء من أخطاء سهوا أو سبق قلم من النسّاخ كما في سورة "سبأ" حيث قال: « آياتها خمس وخمسون في الشامي، وأربع وخمسون في الباقين، وما قيل خمس وأربعون سهو من قلم الناسخ»[2].

رابعا: المناسبة بين السور وبين الآيات

يذكر الألوسي مع بداية تفسير كل سورة وجه المناسبة بينها وبين السورة السابقة عليها، وهي من المسائل المهمّات؛ إذ ان من فوائد علم المناسبة «جعل أجزاء الكلام بعضها آخذا بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء»[3]. وعلم المناسبة من الفنون التي قل الاعتناء بها والتأليف فيها لدقّتها – كما يقول السيوطي[4].

وأكثر من اعتنى بعلم المناسبة من المفسرين الفخر الرازي[5] (ت 606هـ)، كما ألّف فيه البقاعي برهان الدين كتابا سمّاه " نظم الدرر في تناسب الآي والسور " يعد من أوسع ما ألّف في هذا المجال وهو مطبوع متداول. ثم إن علم المناسبة يرتكز على دقّة الاجتهاد وسداد الارتباط بين الآيات في السورة الواحدة، وبينها وبين الآيات في السورة السابقة عليها، وإلا خرج الربط ووجوه المناسبة إلى التكلف.

---

(1) روح المعاني، 02/18.

(2) المصدر نفسه، 102/22.

(3) الإتقان، السيوطي، 108/2.

(4) الإتقان، 108/2.

(5) تأتي ترجمته. انظر: ص.

والملاحظ أن الإمام الألوسي يورد مع بداية كل سورة وصفا عاما للمناسبة بينها وبين سابقتها دون الولوج في جزئياته؛ ففي سورة "الأنعام" قال: «ووجه مناسبتها لآخر المائدة -على ما قال بعض الفضلاء- إنها افتتحت بالحمد، وتلك اختتمت بفصل القضاء، وهما متلازمان كما قال سبحانه: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ اَلْحَمْدُ للهِ رَبِّ اِلْعَلَمِينَ ﴾[1] »[2]، ثم ساق وجوه مناسبات أخرى بين " الأنعام " و" المائدة " عن الجلال السيوطي[3] الذي يكاد يكون عمدته في هذا الشأن، وإن تعقّبه في بعض المواضع كما في صدر سورة "يونس "؛ فإن السيوطي ذكر وجه المناسبة بينها وبين "الأعراف " دون " براءة "، فقال الألوسي: «والعجب من الجلال السيوطي -عليه الرحمة- كيف لم يلح له في " تناسق الدرر " وجه المناسبة بين السورتين، وذكر وجه المناسبة بين هذه

---

(1) سورة الزمر: الآية 72.

(2) روح المعاني، 76/7.

(3) ألّف السيوطي في علم المناسبة كتابا سمّاه "تناسق الدرر في تناسب السور" استخلصه من كتاب له قال عنه في سياق حديثه عن المصنّفات في علم المناسبة: «وكتابي الذي صنّفته في أسرار التنزيل كافل بذلك، جامع لمناسبات السور والآيات، مع ما تضمّنه من بيان وجوه الإعجاز وأساليب البلاغة، وقد لخّصت منه مناسبة السور خاصّة في جزء لطيف سمّيته تناسق ...». الإتقان، 108/2. وكتابه "أسرار التنزيل" هو الذي صرّح باسمه كاملا في النوع الثالث والستين (في الآيات المشتبهات) فقال إنه "قطف الأزهار في كشف الأسرار". الإتقان، 115/2. كما أشار السيوطي إلى كتابه " تناسق الدرر " في الترجمة التي عقدها لنفسه في كتابه: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، 157/1. ولم تقع عيني على كتاب" تناسق الدرر"، مع أن الألوسي ذكر في غير ما موضع أنه المنقول منه. وقد ذكر الدكتور عبد العال سالم مكرم في كتابه "جلال الدين السيوطي وأثره في الدراسات اللغوية" أنه توجد نسخ مخطوطة من الكتاب في عدّة مكتبات عالمية مع احتمال أن يكون قد طُبع ولم يصل إلينا بعد. انظر: جلال الدين السيوطي وأثره في الدراسات اللغوية، ص199-200.

السورة وسورة " الأعراف " »[1].

وفي وجه المناسبة بين سورتي " الواقعة " و" الحديد " قال في صدر هذه الثانية: « وجه اتصالها بالواقعة أنها بُدئت بذكر التسبيح، وتلك خُتمت بالأمر به، وكان أولها واقعا موقع العلّة للأمر به، فكأنه قيل: ﴿ سَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾[2] لأنه سبّح له ما في السموات والأرض »[3].

خامسا: فضائل السور

ممّا يذكره –عليه رحمة الله– في تفسيره بعد حديثه عن أسماء السورة والمكي والمدني ووجه المناسبة: فضائل بعض سور القرآن الكريم ممّا ثبتت صحّته، وإلا فإنه يتعقبه بما يبيّن درجته، ثم إنه لم يعترّ بما في " الكشّاف "؛ لأنه لا معتمد له على مؤلّفه في علم الحديث، ولا على من نقل عنه وهو الثعلبي في عدم معرفته بالحديث وعلله. ثم إن واضع أكثر هذه الأحاديث أقرّ بذلك، وليس بعد الإقرار بيّنة[4].

فقد ذكر في سورة " الكهف " أن فضلها مشهور، ثم ساق أحاديث منها الحديث الذي رواه أحمد ومسلم وغيرهما عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: « من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصم من فتنة الدجّال »، وفي رواية « العشر الأواخر »[5].

والألوسي يستأنس ببعض الأحاديث غير الصريحة في الدلالة على فضائل

---

(1) روح المعاني، 58/11.

(2) سورة الواقعة: الآية 99. والآية هي: ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾.

(3) روح المعاني، 164/27.

(4) انظر: فتح البيان في مقاصد القرآن، القنوجي البخاري، 27/1.

(5) مسلم: صلاة المسافرين وقصرها؛ باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي، 555/1-556 (رقم 809).

السور لمثل هذا الغرض؛ كما في الحديث الذي أخرجه الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة أنه ﷺ كان يقرأ في الفجر يوم الجمعة ألم تنزيل السجدة وهل أتى على الإنسان[1]، قال إنه « مشعر بفضلها، والحديث في ذلك صحيح لا مقال فيه »[2]، وهو كما قال.

وفي فضل سورة " الأعلى " ذكر الألوسي حديثا رواه الإمام مسلم وغيره « أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العيدين ويوم الجمعة ﴿ سَبِّحِ اِسْمَ رَبِّكَ اَلاَعْلَى﴾[3] و﴿ هَلَ اَتيكَ حَدِيثُ الْغَشِيَةِ﴾[4] وإن وافق يوم الجمعة قرأهما جميعا »[5]. وهذا الحديث وإن لم يدل بظاهره على فضل سورة الأعلى، ففيه إشارة إلى ذلك؛ كون النبي ﷺ كان يقرأ بها في مناسبتين معظّمتين عند المسلمين وهما يوم الجمعة ويوم العيد.

سادسا: التفسير الإشاري

من المسائل التي سار الألوسي في إيرادها على وجه واحد تقريبا " التفسير الإشاري "، حيث يذكره عقب الانتهاء من التفسير بالظاهر في آخر كل ربع من أرباع أحزاب القرآن الكريم، وربّما ذكره أثناء تفسيره بعض آيات القرآن الكريم لأنه رأى من المناسب أن يتعرّض له فيها، أو في بعض السور لقصرها فيورده بعد الانتهاء من تفسيرها، وقد لا يذكره لأنه لم تتراء له فيها إشارات

---

(1) البخاري: الجمعة؛ باب ما يقرأ في صلاة الفجر يوم الجمعة، 303/1 (رقم 851)؛ ومسلم: الجمعة؛ باب ما يقرأ في يوم الجمعة، 599/2 (رقم 879).

(2) روح المعاني، 116/21.

(3) سورة الاعلى: الآية 01.

(4) سورة الغاشية: الآية 01.

(5) المصدر نفسه، 102/30. والحديث في صحيح مسلم؛ الجمعة؛ باب ما يقرأ في صلاة الجمعة، 598/2 (رقم 878).

تستحق الذكر، كما توجد إشارات من هذا النوع من التفسير مبثوثة في ثنايا الكتاب، وعبارته في ذلك أن يقول في الأغلب الأعم: " ومن باب الإشارة "؛ فيثبت ما لاح له من إشارات أو ينقلها عن غيره.

فمن الأمثلة على ذلك ما ذكره في آية البسملة -عند من عدّها آية- بعد ذكر سبب كسر حرف الباء فيها عند النحاة حيث قال: « وقال بعضهم: من باب الإشارة كُسرت الباء في البسملة تعليما للتوصّل إلى الله تعالى والتعلّق بأسمائه بكسر الجناب والخضوع وذلّ العبوديّة؛ فلا يتوصّل إلى نوع من أنواع المعرفة إلا بنوع من أنواع الذلّ والكسر »[1]، ثم ساق كلاما آخر له ولغيره شبيها بهذا، عرض فيه لنقطة الباء في الآية مخرّجا على النحو السابق[2].

أمّا عند تفسيره لنصف الحزب الأول من سورة " البقرة " الذي ينتهي عند الآية الثالثة والأربعين، وهي قوله تعالى: ﴿وَارْكَعُواْ مَعَ الراكِعِينَ ﴾[3] قال: « ومن باب الإشارة في قوله تعالى: ﴿ وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ ﴾[4] إلخ، أي لا تقطعوا على أنفسكم طريق الوصول إلى الحق بالباطل الذي هو تعلّق القلب بالسوى »[5]، إلى آخر ما قال.

ومن التفسير الإشاري الذي أورده في أحد أرباع سورة " النساء "، قوله: « ومن باب الإشارة ﴿ يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾[6] بأن يكاشفكم بأسراره المودعة فيكم

---

(1) المصدر نفسه، 51/1.

(2) المصدر نفسه، 51/1.

(3) سورة البقرة: الآية 42.

(4) انظر تفصيل هذا المثال في مسألة التفسير الإشاري عند الألوسي من الفصل الأخير، ص

(5) روح المعاني، 247/1.

(6) سورة النساء: الآية 26

أثناء السير إليه ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾[1] أي مقاماتهم وحالاتهم ورياضاتهم، وأشار بهم إلى الواصلين إليه قبل المخاطبين، ويجوز أن تكون الإشارة بالسنن إلى التفويض والتسليم والرضا بالمقدور؛ فإن ذلك شنشنة الصدّيقين، ونشنشة الواصلين »[2]، إلى آخر ما قال.

وفي سورة " الأنبياء " قال في آية ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ ﴾[3]: « قال بعض الصوفية: الموازين متعدّدة؛ فللعاشقين ميزان، وللوالهين ميزان، وللعاملين ميزان وهكذا، ومن ذلك ميزان للعارفين توزن به أنفاسهم، ولا يزن نَفَسا منها السموات والأرض، وذكروا أن في الدنيا موازين أيضا، وأعظم موازينها: الشريعة، وكفّتاه الكتاب والسنّة، ولعمري لقد عطّل هذا الميزان متصوّفة هذا الزمان، أعاذنا الله تعالى والمسلمين ممّا هم عليه من الضلال، إنه ﷻ المتفضّل بأنواع الأفضال »[4].

وفي سورة " فُصِّلَت "نقل عن بعض المتصوّفة أن قوله تعالى:﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَتِنَا فِي اللآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ ﴾ [فُصِّلَت: 52] « يدل على وحدة الوجود »[5]، ثم علّق بقوله: «وقد رأيت في بعض كتب القوم الاستدلال به على ذلك، وجعل ضمير "إنه الحق " إلى المرئي، وتفسير الحق بالله ﷻ، ومن هذا ونحوه قال الشيخ الأكبر [ابن عربي ت638هـ][6] -قدّس سره-: سبحان من أظهر الأشياء وهو عينها، وهذه الوحدة هي التي حارت فيها الأفهام، وخرجت لعدم تحقيق

---

(1) سورة النساء: الآية 26.

(2) روح المعاني، 35/5.

(3) سورة الانبياء: الآية 47.

(4) روح المعاني، 57/17.

(5) المصدر نفسه، 08/25.

(6) يأتي التعريف به في الفصل الثاني. انظر: ص.

أمرها رقاب من ربقة الإسلام ... نسأل الله تعالى أن يمنّ علينا بصحيح الشهود، ويحفظنا بجوده ممّا علق بأذهان الملاحدة من وحدة الوجود »[1].

وهوتعقيب منه – رحمه الله تعالى – على كلام ابن عربي وغيره يبيّن موقفه من وحدة الوجود، وأنه ينقم على القائلين بها.

وآخر ما ختم به سورة " الشَّمس "، وختم به القرآن أيضا من التفسيرات الإشارية، قوله: « وذكر بعض أهل التأويل أن "الشمس" إشارة إلى ذات واجب الوجود سبحانه وتعالى، و"ضحاها " إشارة إلى الحقيقة المحمدية، و" القمر " إشارة إلى ماهية الممكن المستفيدة للوجود من شمس الذات، و" النهار " إشارة إلى العالم بسائر أنواعه ... و" الليل " إشارة إلى وجود شاهد من أنواع الممكن ... و" السماء " إشارة إلى عالم العقل، و"الأرض " إشارة إلى عالم الجسم، و"النفس " معلومة، و" ناقة الله " إشارة إلى راحلة الشوق الموصلة إليه سبحانه، و" سقياها " إشارة إلى مشربها من عين الذكر والفكر »[2].

ومن خلال ما سبق، يظهر أن هذه اللطائف التي يذكرها الألوسي لدى تفسيره لبعض آيات القرآن الكريم إمّا أن ينقلها عن غيره، أو تكون ممّا يستشفّه هو نفسه من آي الذكر الحكيم، كما أنه لا يثبت كل ما قيل فيها من إشارات؛ بل يتخيّر منها ما كان مستساغا عقلا، وغير مصادم للمعنى الظاهر، هذا وسيأتي مزيد بيان عن منهجه في التفسير الإشاري[3].

---

(1) روح المعاني، 08/25. والظاهر من كلام الألوسي في هذا الموضع إنكاره على ابن عربي، والحق أنه يبرّئه من القول بوحدة الوجود وإن دل ظاهر كلامه عليه، وسيأتي مزيد بيان لموقف الألوسي من تفسير ابن عربي في حينه من الفصل الرابع. انظر: ص

(2) المصدر نفسه، 146/30.

(3) انظر: ص

سابعا: الحروف المقطّعة في أوائل السور

يُضاف إلى ما ذُكر من المسائل التي افتتح بها الألوسي تفسيره لسور القرآن الكريم، أو ختم وأنهى بها تفسيره للسّورة أو العدد من الآيات، يُضاف إلى ذلك الحروف المقطّعة أو حروف الهجاء التي افتُتحت بها بعض سور القرآن الكريم، وإن كان الفرق بينها وبين ما ذُكر أنها جاءت في أصلها في صدر السور التي ابتُدئت بها فلا يصح أن تؤخّر، أمّا المسائل الأخرى التي سبق الحديث عنها فيمكن للمفسر تقديمها أو تأخيرها بحسب موضعها من الآيات التي له بها تعلّق ولها به صلة.

وكون الحروف المقطّعة ممّا يدخل في باب الإعجاز أو المحكم والمتشابه ممّا قيل به، فهي على هذا النحو من مسائل علوم القرآن، إلا أن غرضنا في هذا المقام هو إيراد المسائل التي سار الألوسي في ذكرها على نمط واحد كما قلنا، والحروف المقطّعة أولى من غيرها بهذا؛ لمجيئها في صدر السور التي ذُكرت فيها، فلو روعي المجال الذي توضع فيه لألحقت بالإعجاز مثلا أو بالمتشابه، لكنّ المقصد غير ذلك.

هذا وقد أطال الألوسي في صدر سورة " البقرة " الحديث عن هذه الحروف، وممّا قاله إن "ألم " « وسائر الألفاظ التي يتهجّى بها؛ ك " با، تا، ثا " أسماء مسمّياتها الحروف المبسوطة التي رُكّبت منها الكلمة »[1].

وكون هذه الحروف أسماء لسورها غير مطّرد كما هو الحال في سورتي " البقرة " و" آل عمران " مثلا، ولها عند المفسرين معان غير ذه، ويرى الألوسي أن « الذي يغلب على الظن أن تحقيق ذلك علم مستور وسر محجوب، عجزت

---

(1) روح المعاني، 98/1.

العلماء عن إدراكه، وقصرت خيول الخيال عن لحاقه»[1].

ومع هذا التصريح من الألوسي بالتوقّف في فهم معاني هذه الحروف، إلا أنه يقول بوجود من يعرف معانيها بعد رسول الله ﷺ كالأولياء، بل ويذهب إلى أبعد من ذلك؛ فيجعل هذه الحروف تنطق لهم كما كانت تنطق لمن سبّح بكفّه الحصى، وكلمه الضب والظبي -صلى الله تعالى عليه وسلم-، وأن عدم علم أكثر الخلق بها حكمة بالغة، يظهر بها كمال الانقياد ونهاية التسليم والطاعة لله رب العالمين ممّن جهل المراد منها؛ فالجهل بها ينطوي في النهاية على مصلحة عظيمة ومنّة من الله على عباده جسيمة، لبقاء قلوبهم متلفّتة متفكّرة مشتغلة بها وبأمثالها ممّا في كتاب الله تعالى[2].

وبعد ذلك ساق كلاما لمحيي الدين بن عربي وغيره يتعلّق بهذه الحروف، أعقبه بقوله: « اعلم أن كلّ ما ذكر الناس فيها رشفة من بحار معانيها، ومن ادّعى قصرا فمن قصوره، أو زعم إنه أتى بكثير فمن قلّة نوره »[3].

ويدور الكلام في أكثر هذه الحروف حول معناها أو إعرابها أو أنها أسماء للسّورة المذكورة فيها أو للقرآن، أو أنها إشارة إلى اسم من أسمائه سبحانه أو صفة من صفاته، أو هي إقسام، والقسم معنى من المعاني المشار إليها.

ومن المعاني التي ذُكرت في تفسير " ألم " البقرة، أن الألف « مشير إلى الله تعالى، واللام إلى جبريل، والميم إلى محمد -صلى الله تعالى عليه وسلم- »[4]. ثم تحدّث عن إعرابها وما قيل فيها عند النحاة، وأنها « إن جُعلت أسماء

---

(1) روح المعاني، 100/1.

(2) المصدر نفسه، 100/1-101.

(3) المصدر نفسه، 103/1.

(4) المصدر نفسه، 103/1.

للسّور مثلا كان لها حظ من الإعراب رفعا ونصبا وجرّا »[1]. وختم الحديث عنها بذكر الخلاف بين مدرستي الكوفة والبصرة في كونها آية أم لا.

وفي " ألمر " من سورة " الرعد " ذكر أن ابن جرير وغيره أخرج عن ابن عباس « أن معنى ذلك: أنا الله أعلم وأرى، وهو أحد أقوال مشهورة في مثل ذلك »[2].

أمّا في سورة " طه "، فقيل: إن معناها يا فلان، وقيل: يا رجل، واختلف بأي لغة هو، وإن كان الألوسي ختم حديثه عن هذين الحرفين المقطّعين بإيراد رواية عن عليّ -كرّم الله وجهه- وغيره أنه فسر " طه " بـ « طأ الأرض بقدميك يا محمد »[3]، وتعليقه عليها بأنه لم يقف على طعن فيها مشعر بترجيحه لها على غيرها من الأقوال.

وفي سورة " الشعراء " ذكر رواية أخرجها ابن أبي حاتم عن محمّد بن كعب أنه قال: « الطاء من ذي الطول، والسين من القدّوس، والميم من الرحمن»[4].

وفي " ألم " السجدة قال: « إن جُعل اسما للسورة أو القرآن، فمحلّه الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أي هذا "ألم"»[5].

وفي سورة " ص " نقل من معانيها أنهم قالوا إنه من صادى أي عارض، ومنه الصدى، ومعناه: اعمل بأوامره ونواهيه، وقيل: هو أمر من صادي أي حادث، والمعنى: حادث القرآن، ثم ذكر أنهم قرءوا بفتح الصاد، كما بالجر

---

(1) المصدر نفسه، 104/1.

(2) المصدر نفسه، 84/13. وانظر: تفسير الطبري، 91/8.

(3) المصدر نفسه، 149/16.

(4) المصدر نفسه، 58/19. وانظر: تفسير ابن أبي حاتم، 2747/8 (رقم 15518).

(5) روح المعاني، 116/21.

والتنوين، وقرئ بضم الدال، ورتّب -رحمه الله- على الحركات الإعرابية معاني وإعرابا يليق بكل منها. أمّا ما يتعلّق بمعنى الحرف فذكر أن بعضهم قال لمّا سئل عنه: ما ندري ما هو، وقال آخرون: "ص" كان بحرا بمكّة، وكان عليه عرش الرحمن إذ لا ليل ولا نهار، إلى غير ذلك من المعاني التي ذكرها المفسرون[1].

وهكذا فعل في باقي السور التي أوائلها حروف مقطّعة كالشورى و" ق "؛ يذكر أنها أسماء لتلك السور أو أنها لله تعالى أو غير ذلك، وهو بإيراده لتلك المدلولات ليس بدعا؛ لأنه صنيع الكثير من العلماء والمفسرين، وإن رجّح بعضهم أنها من المتشابه، وأنه لا يدرك كنهها إلا الله تعالى، إذ هي سرّ من أسراره، وعنوان لإعجازه[2].

فهذه بعض شذرات عن تفسير الإمام الألوسي، والذي يُعدّ بحقّ أحد التفاسير المهمّة، التي لا غنى عنها لكل طالب علم، لا سيما طالب تفسير كتاب الله.

---

(1) انظر: روح المعاني، 161/23.

(2) انظر: الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، 08/2 وما بعدها.